



السيد علي أحمد الصوري  
مصر

# الخروج من دوائر الضياع

يا للشقاء.. حتى الشتاء يتحالف مع كل الظروف ضدي ما باله يهوي  
في آخر أيامه بكل غضبه علي .. تماما كالملاك الذي يستدرج خصمه ثم  
ينهل عليه بالضربات المميتة في الجولة الأخيرة..  
- ادخل... ادخل... عد إلى ركنك الهادي في الناحية الخافتة الضوء..  
اشرب شراباً آخر.. ربما يرحمك الشتاء، نصف ساعة تعود خلالها إلى  
المنزل، بل إلى الكهف، منذ عامين وأنا أجلس في هذا المقهى وحدي  
ذهب الأهل وتبخر الدفء والرفاهية، وراح الاستقرار...

- رفيق.. يا صديقي! أرجوك.. إنني مريض ومُعذب  
ومفلس.. لا تكن شيطاناً حسبي الشيطان الذي قاومته.  
- مفلس.. ها... ها.. أمر طبيعي أن تفلس، مادمت تدفن  
نفسك في هذا البدروم القذر، بنصف راتبك الشهري،  
يالأسك الحجرى!  
- حتى أنت يا رفيق، أصبحت شيطاناً يغويني.  
ويطار دني...

... وحد الله يا أستاذ! السقف ينشع من فوقك بالماء.  
فيم كنت تفكر؟ فكر في الخالق وحده. وصاح نادل المقهى  
وهو يدير وجهه، وكأنه يوزع الكلمات على كل أرجاء  
المقهى: وحد الله، فكر في الخالق وحده! ثم استدار النادل  
إلى حيث يجلس وهو يشير إلى مكان خال في ركن مقابل  
....

- اجلس هنا، هنا يا أستاذ محسن! مكان دافئ سقفة  
سليم. واسترسل وعيناه تتفحصان المكان..  
- أنا أيضاً نسيت مظلة المطر، من كان يظن أن السماء  
ستمطر يا محسن؟ وعاد إلى غيبوبته؟ وغاب تماماً عما  
حوله...

- اذهب.. عد إلى العش الدافئ الذي هجرته، قلت لك  
اذهب، سامر عليك هناك بعد غد كي أطمئن عليك هناك،

- لا تؤاخذني أنت غبي أي إنسان عاقل سيقول هذا؟  
شقة أنيقة دافئة، تليفزيون ملون، فيديو، حمام ساخن  
معطر، أثاث رائع، تتركها إلى هذه الغرفة المثلجة القاحلة  
في هذا البدروم الذي يأنف العنكبوت أن يغزل فيه  
خيوطه، اجن حصاد أخلاقك ومبادئك يا حكيم الزمان،  
اليوم نزلة شعبية وغدا التهاب رئوي، ثم روماتيزم  
مزم.

- أعوذ بالله، رفقا يا صديقي! دعني وشأني، ارفق بي.  
- اسكت! لقد حيرتني، أتهرب؟ تهرب يا مجنون من  
الدنيا حينما تقبل عليك، ما تفر منه يسعى إليه آخرون  
دون أن ينالوه، امرأة كالبدن، صاحبة شقة فاخرة تعيد لك  
نفسك، ترفضه أنت بغباء وغطرسة، ثم تذهب لتؤذي  
نفسك. ترتب لك حجرتك فتبدي لها ضجرا، لا تطلب منك  
إيجار الغرفة فتصمم أنت على سدادها، تتزين كعروس  
وتناديك بسمتها وعطورها فتهرب أنت إلى المقهى لتؤذي  
عينيك وسمعك بهؤلاء الصعاليك وهم يتصايحون  
«دوش، يك، جوهار»... هل طلبت منك الزواج أيها الغبي؟  
إنها لم تطلب منك شيئا، فقط أحبتك، أجل أحبتك رغم أن  
هناك ألف رجل غيرك أمامها. لست أدري لم أحبتك أيها  
المسكين المفلس؟..

التي تجر الفقر والبرد والسغب والمرض. إنني أعيش بأفكار كهل غبي، وأنا في فورة شبابي، نصف راتبي أدفعه إيجارا لهذا البدروم القذر، والنصف الآخر لا يكفي مواصلاتي وسندوتشات الفول والأوراق والكتب!.

ماذا جنيت من أخلاقي ومثلي وأفكاري وكتاباتي؟ إنه انتحار. عنواني أخفيه عن زملائي في العمل حتى لا يشاهدوني في هذا الكهف القذر. أطاح بما على المنضدة. طارت الأوراق ومعها كتاب في الأدب، وتوارى القلم في إحدى الزوايا. خلع المعطف القديم وهو يسعل. المطر والجليد والرياح في الخارج أرحم من هذا الكهف المثلج العطن. كم أنا غبي عنيد فعلا، كنت في نعيم، لأذهب الآن.. الآن لا الغد.. الوقت؟ لا يهم الوقت.. نائمة؟ لا، هي لا تنام إلا مع ضوء الفجر، ساهرة مع أفلام الفيديو، حتى لو كانت نائمة، لا يهم، سأوقظها، ستسعدنا المفاجأة حتما، ستسعدنا، أطلق قهقهة غريبة وهو يغلق الباب ويخرج. يدخل يديه بجيبتي سترته ويجوس في الظلام..

الظلام حوله جهم، مصابيح الشوارع وانية شاحبة تخنقها الغيوم ويكسوها الغلس المضرب، الرياح تلمطم جسده النحيل فتتهتز خطواته، غير أن المطر قلت غزارته، أصبح رذاذا خفيفا، عشر دقائق وأكون هناك حيث الدفء والهناء والنعيم، وغدا.. غدا سأجمع أشياءي من الكهف العطن المثلج... يالغبائي! ويا لتحملها حمقي وصدودي!

وأطمئن كذلك على أن عقلك قد لان وبدأ التفكير.. - أصلحك الله يا رفيق! أصدق أنت؟ لقد تحولت إلى الشيطان، ما الذي جعلني أتذكر أحداث الأمس، أهو المرض؟ أم الضياع والإفلاس؟ والرطوبة، والوحشة؟ وماذا بعد؟ المطر الثلجي مازال منهمرا، والرياح عاصفة هو جاء؟ كم الساعة الآن؟ ياد! تجاوزت منتصف الليل. يكاد المقهى يخلو إلا من بعض المنكمشين في الأركان. لعلهم معذبون وضائعون مثلي وها هو ذا النادل يقلب المقاعد الخالية. وكأنه يدفع من بقي من الرواد إلى سرعة الرحيل. الجليد المتساقط، والرعد يفزعان نوافذ البنائيات الشاهقة. لكن... لا بد له من الخروج الآن، لا بد من العودة إلى حيث يسكن، ينام أو يكتب. حينما يكتب يستريح. يفرغ في الورق عذابه وقلقه. بينه وبين المترو خطوات. لا مواصلات عامة بعد الساعة الواحدة، ليحمل المطر والرياح عدة دقائق قبل أن يسرقه الوقت! ولا يجد مواصلة عامة، في المترو سيشعر بالدقة.

فتح باب مسكنه وهو يرتعد من البرد. أشعل النور. جال بنظره متاففا في الأركان. التقط معطفا مهترئا من فوق مشجب معلق على الحائط المتآكل الطلاء. ارتداه فوق ملابسه. ذهب ليعد الشاي وهو يزرد كسرات من الخبز الجاف، وقطعة من الجبن. ووضع أوراقا على منضدة متهالكة مجاورة للسريير عليها كتاب وأقلام. جلس مرتجفا يفرك يديه.. غدا الجمعة، لا عمل، لا سهر، أسهر حتى الصباح. أفرغ همومي وقلقي، لكن.. لكن البرودة تتسلل إلى أطرافه، يتجمد القلم بين أصابعه، يتأفف، ينظر إلى سريره، بطانيتان قديمتان لالون لهما. - .. أتتمد تحت البطانيتين على السريير وأكتب. لا قدرة

لي على تحمل هذا البرد... وضع كراسية على جزء من الوسادة، واتكأ على الجزء الآخر وقبل أن يتحرك القلم لطم أذنيه صوت مقرع. شيش النافذة المتهالك يرتطم بالزجاج. ازدادت الرياح جنونا، وصوت الرعد أصبح مخيفا. قام منتفضا يحكم الشيش الذي أحدث شرخا بالزجاج، عالج الرتاج بسلك كهربائي. سرت إلى جسده قشعريرة شديدة وهو يعود إلى السريير. يتوقف مفزعا، ارتطم الشيش مرة أخرى. لا.. لن أبقي هنا الليلة في هذه الحجرة، إنه انتحار... جنون وغباء.

إيه... ما بال الظروف والأحوال تتكاتف مع حالتي للقضاء على كل الأخلاق، تلك الأخلاق



كادت تبكي وأنا أترك غرفتي في شقتها. كانت تحبني. أجل إنه الحب، الحب، وليس السعي إلى المتعة من أجل المتعة، فعلا، كما قال رفيق: أرملة شابة جميلة، تمتلك شقة رائعة، أمامها ألف رجل، فلماذا أنا وحدي دون الرجال؟ بالفعل لم تطلب الزواج مني، ماذا سأخسر؟ بغتة سمع صوتا يناديه: - حاذر يا بني.. لم جنحت نحو الطين؟.. أمامك بركة أحدثتها الأمطار في الأرض الترابية المنحدرة، الطريق على يمينك نظيفة لا طين، ولا مياه.

توقف، نظر نحو الصوت، رجل لم يتبين ملامح وجهه. طويل ضخم الجسم، على رأسه غطاء وفوق كتفيه عباءة، استرسل الصوت وهو يدنو منه ببطء.

- أقبل يا بني ما بك...؟ وإلى أين أنت ذاهب في مثل هذا الوقت؟ اقترب هو الآخر متثاقلا نحو الرجل. جال بشعاع عينيه في وجهه المشرق تحت الغطاء والعباءة، دهش! رجل قريب الملامح من والده «سبحان الله» حتى فيما يرتديه. كان أبوه يخرج لصلاة الفجر في مثل هذا الوقت مرتديا مثل هذه العباءة، وعلى رأسه مثل هذا الغطاء، تلعثم ولم يجب الرجل، تفحص الرجل وجهه بإمعان ثم قال:

- لم يبق على أذان الفجر سوى دقائق يا بني، إلى أين أنت ذاهب؟ أذهاب إلى المسجد؟ يبدو أنك غريب عن هذا الحي فلم أرك في المسجد من قبل، الطريق الذي كنت تسير فيه لن يفضي إلى المسجد، تعال معي إن كنت تقصد المسجد...

لم يدعه يكمل كلامه. قال متلعثما وهو مطاطي الرأس... - أجل.. المسجد. لكن... أنا.. أنا.. بالفعل غريب.. أقصد أنا ساكن جديد في هذا الحي. تفحصه الرجل من جديد. وكست ملامحه غلالة من الريبة. وسار ببطء وهو يوجه نظرات جانبية حذرة إلى الفتى الذي سار بجواره. تمنع الشاب بدوره في الرجل الذي تقدمه بخطوة أو خطوتين..

- سبحان الله! حتى مشيته شبيهة بمشية أبي، ملامحه وملابسه. سبحان الله! رحمك الله يا أبي! نسيت وصاياك، كدت أضيع وأهوي في قرار سحيق. تذكر أنه لم يصل منذ عامين عاشهما ضائعا مكتئبا، قال له وهو على فراش المرض:

- ماتت أمك، وستصبح أختك وحيدة من بعدي إن لم تصنعها. الحمد لله أن أمك لم تمت إلا بعد عقد القران يا بني. هو عسبي ومادي لكنه طيب القلب. قف مع أختك حتى يتم زفافها ولو اقتضى الأمر دع لها الشقة تزوج فيها. أنت رجل قادر على التصرف والتحمل. والحمد لله أنك تخرجت من الجامعة، وتسلمت عملك، صن نفسك يا بني، حافظ على الصلاة، لا تحد عن الطريق المستقيم:

انبثقت الدموع من عينيه. يرحمك الله يا أبي.. يرحمك الله، لقد أدبت واجبي نحو أختي، تزوجت، تركت لها الشقة. بكت تمسكت بوجودي معها في إحدى غرف الشقة الواسعة. شقة والدي كما قالت: ألقى من زوجها اعتراض مستح.

خشيت أن يختلفا من أجلي. أثرت الابتعاد وزياراتها في المناسبات. بعد أن ضاق زوجها بزياراتي الكثيرة. أول الأمر لست أدري لماذا كانت تبكي حين أزورها؟ وأبكي أنا أيضا وأسألها عن أحوالها. وتسالني متأللة عن أحوالي. وكيف أعيش. وكيف أسكن.. وأين أسكن؟. لم أكن أخبرها عن عنوان مسكني. كانت تتصل بي على هاتف عملي كلما طالت الفترة بين زيارة وأخرى.. كنت أخفي عنها تعبي ومعاناتي وأصبرها على متاعبها مع زوجها. أدبت واجبي حيال أختي يا أبي.. لكن.. لكن أستغفر الله.. نسيت الصلاة، تقاعست عنها بعد وفاتك بشهور قليلة، اهتززت، ضعفت، وها أنا ذا كدت أسقط في الوحل...!

علا نشيجه وغمرت الدموع عينيه ووجهه. سمع الرجل الذي كان يتقدمه قليلا نشيج البكاء. توقف الرجل حتى أصبح محسن ملاصقا له. ربت الرجل على كتفه وهو يقول بنبرة صافية ونظرة حانية..

- أذكر الله يا بني.. أذكر الله، توكل عليه ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ تمت محسن وهو يمسح دموعه بكفه..

- سبحان الله.. توكلت عليه..

حينما وصلا المسجد كانت جموع المصلين قد توافدت واقترب بعضهم من الرجل بإكبار وإعزاز. أشار الرجل لمحسن إلى باب الوضوء.. أحس محسن بعد أن توضع براحة نفسية غامرة. شعر بأن أكادسا من القتام قد زالت عن عينيه ووجهه. سمع بعد أن أتم الوضوء صوت المؤذن، ردد الأذان، واتجه إلى داخل المسجد. وأدى سنة الفجر. طال سجوده وفجر الخشوع دموع عينيه من جديد. وحينما أقيمت الصلاة شاهد الرجل الذي قاده إلى المسجد يؤم المصلين. شعر براحة نفسية شملت كيانه كله أحس بدموع عينيه أثناء صلاته تغسل عينيه من جديد. ثم تنساب فتغسل وجهه. بل أحس بها تتسلل إلى وجهه وشرائينه وقلبه فتضيئ النبضات. بعد انتهاء الصلاة أسرع نحو الإمام ماذا يده وعيناه مازالتا مغرورقتين بالدموع.. استقبله الإمام باشا. قال له:

- نأمل أن نسعد بلقائك في المسجد كل يوم يا أستاذ..

- بادره محسن سعيدا منشرحاً..

- محسن يا شيخنا.. ابنكم محسن... بإذن الله ستجمعنا الصلاة كل يوم...

أحس وهو في طريقه إلى مسكنه بإشراقة تضيئه وتسري في كل كيانه. جال بعينه في السماء، وجد أشعة الصباح قد فرقت دوائر الغيوم، وبددت خيوطها الكثيفة السوداء. زاده صفاء الأفق ابتهاجا وراحة. بدا الجو ربيعيا.. سبحان الله! منذ ساعات قليلة كان المطر مثلجا، والرعد مخيفا، والرياح عاصفة.. سبحان مغير الأحوال! فتح باب غرفته، اتجه إلى شيش النافذة، فتحه، تسلل النور... لم يشعل المصباح الكهربائي، لمح الأوراق وكتاب الأدب والقلم في زوايا الحجرة،

جمعها بعد أن نظر إليها باعتذار، رتبها ووضعها على المنضدة بعد أن نسقها، أبدل ملابسها وارتدى منامته واستلقى على السرير وهو يقرأ آيات من القرآن الكريم..

\*\*\*

أيقظه من نومه طرق شديد على الباب.. نهض، نظر في ساعته، العاشرة صباحاً، قام نشيطاً، أحس أنه نام نوما هادئاً عميقاً لأول مرة منذ أكثر من عام. طمأن من يطرق الباب بأنه قادم لفتحه، حينما فتح الباب واجهه حارس العمارة التي يسكن إحدى غرف بدرومها بقوله:

- ماذا يا أستاذ محسن؟ منذ مدة ونحن نطرق الباب، كان الله في عونك، لقد أحسست بك وأنت تعود في الفجر، الأستاذ يسأل عنك، يقول إنه قريبك، وأشار بيده لشخص متوار خلفه، اقترب الشخص المتواري من محسن، كان زوج شقيقته احتضنه، تركهما الحارس مبتسماً لما شاهدهما يتعانقان ويبكيان. قال له زوج شقيقته وهو يرنو باسماء إلى الغرفة المتأكلّة الأثاث والطلاء:

- أسفي كبير يا محسن، أرجو أن تسامحني، لقد.. كنت .. لكم قصرت في حقك، أرجو أن تسامحني.. أرى...

استوقفه محسن بإشارة من يده، همس:  
- لا شيء .. لا شيء.. يا أخ نبيل.. المهم كيف حالكم؟ كيف حال أختي؟

- بخير والله الحمد. هي تنتظرك في المنزل، منذ الأمس وأنا أبحث عن عنوانك. ذهبت إليك في مقر عملك فلم أجدك. قالوا إنك بمأمورية خارج العمل وإنهم لا يعرفون عنوان مسكنك، دلني عليه صديقك رفيق وقال إنه عنوان مؤقت ربما تغادره بعد أيام قليلة، الحمد لله أن عثرت عليك في الوقت المناسب، أرجو أن ترتدي ملابسك وتذهب معي، أختك في انتظارك، لم تتم ليلة أمس، كانت تريد الخروج معي للبحث عنك..

بدت على ملامح محسن مشاعر القلق وقبل أن ينطق.. بادره الآخر:

- لا تقلق.. خير.. في الأمر خير إن شاء الله، سأغادر إلى مكة المكرمة بعد أيام قليلة، تعاقدت على العمل هناك، وإلى أن أجهز أوراق أختك كي تسافر إلي مرافقة لأبد أن تقيم معها عدة شهور يا محسن. أعلم أنني قصرت في حقك، لم أكن نبيلاً معك رغم أن الشقة شقة والديك، لكنها إساءة مني أرجو أن تغفروا لي، ستسافر أختك إلي بعد شهور قليلة. ونترك لك الشقة وحينما تنتهي مدة تعاقدتي بإذن الله، ستكون قادرين على شراء شقة، سنحضر إليك في الإجازات زائرين، إنها شقتك، عفواً يا محسن أعلم أنك كبير القلب، أصيل كوالديك وأختك، لكم تحملتني وتحملت سخافاتي، سنحضر سيارة بعد ذلك لننقل أشيائكم. يجب أن تعود إلى منزل والديك من اليوم..

تمعن محسن في وجه صهره وفي عينيه المترققتين بالدمع والأسف وتنهّد براحة وعمق، ولم ينبس بكلمة. وقام ليبدل ملابسها. ودار بوجهه في زوايا الغرفة، فجذبته صهره بحنو ناحية الباب قائلاً:

- لا تهتم بشيء.. سأعود معك بعد صلاة الجمعة لجمع أشيائك بعد ترتيبها في سيارة، عليك الآن أن تسرع معي. لقد أعدت أختك الفطور منذ ساعة.. كان لديها أمل في أنك ستتناول الفطور معنا الحمد لله. الحمد لله...

كانت الشمس زاهية في السماء والشارع المؤدي إلى منزل والديه، ذلك المنزل الذي ولد فيه، وشهد طفولته وصباه، وأجمل سنوات عمره، يشاهد وجوها يعرفها منذ سنوات، وشاهد المسجد الذي يجاور منزلهم، المسجد الذي كان يصلي فيه والده منذ أن كان طفلاً....

أحس بالقوة والانشراح والحنين. وحين دخل باب المنزل، واستشعر أنفاس والديه، أحس بأن عامين من عمره قد سقطا عن كاهله، بكل ما فيهما من معاناة وقلق وحدة وآلام..

وومض في مخيلته من جديد الرجل الذي قاده إلى المسجد، وأنقذه من الغوص في بركة الوحل، من الظلام، من الضياع، ثم تتمم... ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾.

